قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

صناعة الملكة اللغوية في الفكر العربي القديم
ـ الأسس والآليات ـ

Building the Linguistic Competence in Ancient Arab thought - the Foundations and Mechanisms-

عمر بوقمرة[1]*
[1]جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف– الجزائر

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال: 2019/09/25
المراجعة: 2019/10/15
القبول: 2019/10/27

الكلمات المفتاحية:
اللغة،
الملكة اللغوية،
الانغماس اللغوي،
الحفظ،
الاستعمال،
الفصاحة.

ملخص

اللغة مكوّن أساس في هوية الشعوب والمجتمعات وعلى كل المستويات؛ السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والدينية، وغيرها؛ ولذلك حرصت كل أمة على إتقان لغتها، وإشاعة استعمالها، وحفظها مما يفسد ملكتها، وقد كانت العرب قديما مثالا يحتذى به في هذا المجال. ولكن في هذا الزمن ضعفت تلك الهمم؛ وأعقب ذلك فساد الألسن، وضعف الملكات. وقد اجتمعت على ذلك عوامل مختلفة؛ بعضها لغوي، وبعضها الآخر غير لغوي. وهذه الدراسة يجتهد في بحث ومعالجة واحد من أهم الأسباب اللغوية التي كانت وراء ذلك؛ وهو إهمال مناهج القدماء العرب في بناء الملكة اللغوية، وإغفال الآليات التي درجوا عليها في ذلك. وقد استعنت في هذه الدراسة بالمنهج الوصفي التحليلي لمناسبته لها.

Key words:

Language,

Linguistic,

Competence,

Immersion,

Memorizing,

Use,

Eloquence.

Abstract

Language is a fundamental component of the identity of peoples and societies at all levels; political, economic, cultural, religious, and so on; therefore, every nation was assiduous to perfect its language, and expanding its use, and preserve it from grammatical mistakes to keep its purity, The Arabs were an example in this field. But today, these wills were weakened; followed by the corruption of language, and the weakness of competences. Many factors have gathered on this problem; some linguistic, and others non-linguistic. This study aims to research and treat one of the most important linguistic reasons; it is neglecting the methods of the ancient Arabs to build the linguistic competency, and ignoring the mechanisms they used to build it. In this study, I have used the descriptive analytical method because it is suitable for research.

* Corresponding author at: Hassiba benouali University of Chlef. ALGERIA
Email : dr.bouguemra@gmail.com

مقدمة

اللغة إحدى ركائز هوية الأمم والمجتمعات؛ ولذلك مازالت الأمم منذ القديم تعتز بلغاتها، وتتعصب لها، وتجتهد في التمسك بها، وتحرص على إتقانها ونشرها على أوسع نطاق، واللغة العربية ليست نشازا عن هذه القاعدة، وقد نالت النصيب الأكبر من العناية من أهلها في القديم، وكان الدافع الديني يشد من هذه العزيمة ويقويها، ولكن الأمر في العصر الحديث تغير؛ فضعفت الهمم، وخارت العزائم؛ ونتيجة ذلك ضَعْفُ الملكات، بل وزوالها، ويشتد الخطب إذا دبّ الضعف إلى أهل الاختصاص في اللغة العربية وعلومها.

والحقيقة التي يجب الإقرار بها هنا هي: أن أسباب ضعف الألسنة وفساد الملكات كثيرة ومتداخلة، ولا يمكن معالجتها في مقالة كهذه، فقد تضافرت العوامل السياسية، والنفسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والمنهجية، على هذه التربية اللغوية الفاسدة، والمتأمل لهذه العوامل يجدها قسمين: قسما غير مقدور عليه بالنسبه لنا كباحثين؛ ويحتاج إلى إرادة أمة برمتها وهو الأكثر، وقسما يقع تحت قدرة الفرد وإرادته وهو قليل العدد، ولكنه كثير النفع بإذن الله، ومن هذا القليل إثراء البحث وإيجاد أفضل السبل وأيسرها لاكتساب الملكة اللغوية، وكشف العقبات المنهجية التي تعترض فعل الامتلاك؛ من خلال التنقيب فيما خلفه القدماء من فكري لغوي ومنهجي رصين، واستثمار ماجادت به النظريات اللسانية الحديثة ومن ورائها اللسانيات التطبيقية في حقل تعليمية اللغات.

وما استنتجته مدارسة ومعاشرة لكثير من الباحثين العرب المحدثين من خلال بحوثهم المكتوبة أو المنطوقة؛ من خلال الندوات العلمية التي تقام في كثير من البلاد العربية، وتشرفت بالمشاركة فيها، هو اهتمامهم الزائد بالفكر الغربي في هذا المجال، وإهمالهم للفكر العربي، وكان ينبغي أن تكون نقطة البداية من الفكر العربي مشفوعا بالدراسات الغربية إن كان لابد من ذلك، خاصة في هذا الموضوع؛ لأن المُسلَّم به المغفل – وربما المهمل- هو أن الملكة اللغوية عند العرب القدماء كانت مصونة محفوظة قائمة على كمالها، ولا وجه للمقارنة بين حالها آنئذ واليوم؛ ولذلك طرحت عندهم مسألة اللحن كظاهرة مرضية فيروسية يجب محاربتها.

أما اليوم فالمسألة غير مطروحة للنقاش أصلا، وإنما المطروح هو اللهجات والعاميات، وتصويب هذا اللحن؛ ومن هنا كان ينبغي التركيز على الشروط الفكرية والمنهجية التي أثمرت ملكة لغوية كاملة - أو قاربت الكمال- كمثال يحتذي لا اللهاث وراء بعض النظريات الجافة التي نبتت أصلا في بيئة غير عربية؛ فأنى لها أن تسهم في استرداد الملكة اللغوية المفقودة في هذا الزمن؟ ولا يعني هذا أنني من دعاة الانغلاق على الذات وإهمال ماينتجه الآخر مهما آتى أكله وأثمر، وإنما على من أهمل تراثنا الفكري ونكص عنه وأدبر، ولم يرفع به رأسا، وإنني على يقين أن منهج أسلافنا في بناء الملكة وتعزيزها قمن بأن يسترد ألقها ووهجها لوأحسنا استغلاله، مستثمرين ماجادت به النظريات الديداكتيكية الحديثة مشفوعة بما أنتجته التقانة من أدوات.

1ـ **الملكة لغة:** ورد في لسان العرب لابن منظور تحت مادة (م.ل.ك) مايلي:

- المُلْكُ معروف : وهو يذكر ويؤنث كالسلطان.

- ابن سيده: المَلك والمُلك والمِلك احتواء الشيء، والقدرة على الاستبداد به.

- وهذا مِلك يميني ومَلكها ومُلكها أي: ما أملكه. قال الجوهري والفتح أفصح.

- وأعطاني من مَلكه ومُلكه، عن ثعلب،أي مما يقدر عليه.

- ابن السكيت:المَلك ما ملك. يقال: هذا مَلك يميني، ومِلك يدي، وما لأحد في هذا مَلك غيري.

- ومَلَكْت العجين أملُكُه مَلكا إذا شددت عجنه(1).

إذن الملكة في معناها اللغوي تعني القدرة والتمكن من ذلك الفعل الذي أضيفت ونسبت إليه.

2ـ **الملكة اصطلاحا:** هي كيفية راسخة في النفس، أو استعداد نفسي خاص، يُمكِّن صاحبه من أداء ذلك الفعل بمهارة واقتدار فائقين. وقد عرفها الجرجاني صاحب التعريفات فقال:" إنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة مادامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال، فتصير ملكة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقا"(2).

3ـ **مراحل اكتساب الملكة عند ابن خلدون:** يقول ابن خلدون: "اعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبّق الكلام على مقتضى الحال؛ بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة، ثم يتكرر فيكون حالا، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فيكون ملكة أي صفة راسخة"(3). وقد تعمدت نقل هذا النص كاملا لانتقاش جملة من النفائس الكامنه فيهج ومنها:

- أن اللغة ملكة شبيهة بالصناعات الحسية من حياكة، وخياطة، وبناء، وزخرفة، وغيرها، وأن الملكة اللغوية وغيرها من الملكات درجات ورتب، منها العالي، ومنها الداني، وبينهما درجات ودركات.

- أن جودة الملكة ورداءتها بالنظر إلى التراكيب و النظوم، وليس الألفاظ المفردة. وهذا ما قرّره عبد القاهر الجرجاني(ت471ه) من قبل، " وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد"[4]. فاللغة عند الجرجاني ليست قائمة من المفردات، ولو كان الأمر كذلك لكان كل من يحفظ مفردات اللغة فصيحا بليغا، أي مالكا لناصية اللغة، مقتدرا عليها، ولكنّ واقعنا اللغوي يكذب ذلك، فقد بدأنا نتعلم الفرنسية منذ السنة الرابعة ابتدائي إلى السنة التحضيرية من الماجستير أي أربع عشْرة سنة من الطلب، وقد حفظنا كثيرا من الألفاظ الفرنسية، بحيث لو طلب من أحدنا أن يسمي لنا الأشياء الكثيرة بها لما عجز عن ذلك، ولكن حين يطلب منه التعبير أو كتابة فقرة يخرس اللسان ويجّف القلم؛ فالألفاظ عند الجرجاني لا تتفاضل من حيث دلالاتها على مدلولاتها، فليس هناك لفظة أدلّ على معناها من لفظة أخرى، ولنتأكد من صحة هذا الرأي" ينبغي أن يُنْظَر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخبارا، وأمرا، ونهيا، واستخبارا، وتعجبا.

وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة"[5]، وبذلك يعيب الجرجاني على الذين يرون أن الفصاحة في اللفظ المفرد، وأنها تعزى إليه دون مراعاة لمكانه في التركيب، ودليل ذلك أنك ترى الكلمة نفسها تروقك في موضع، وتوحشك في موضع آخر، ولو كانت المزية في الكلمة نفسها لكانت إما تحسن أبدا، أو لا تحسن أبدا[6].

- أن الملكة تحصل بتكرار الفعل اللساني مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته، فحين يقع الفعل أوّل مرة يصير صفة للذات، ثم يتكرر فيصير حالا للذات، ومعنى الحال أنه لم يترسخ بعد، ثم يتكرر الحال أكثر فيصير ملكة راسخة. والفرق الجوهري بين الحال والملكة هو أن الحال صفة عارضة من شأنها أن تفارق المحل؛ أما الملكة فهي كيفية راسخة في المحل يتعسر أو يتعذر زوالها بحسب شدة تمكنها من المحل وطول الهجر[7].

وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يضع حدودا فاصلة بين الملكة ومراحلها القبلية، أي لم يضع حدودا للتكرار ودرجة تواتره من مرحلة لأخرى، فلعل مرد ذلك إلى صعوبة ضبط التكرار وحدوده كما تضبط حدود الأرض، إذ هو أمر نسبي في الأفراد بحسب قدراتهم، ونسبي في الأزمنة والأمكنة بحسب أحوالها وملابساتها. ويمكن لنا أن نمثل بحفظ القرآن الكريم الناجم عن التكرار، فما يحفظه فرد في يومٍ قد يمكث فيه آخر بضعة أيام، وما يحفظه في الصباح يختلف عما يحفظه في المساء وهذا أمر باد لمن تأمله.

4. أضرب الملكة: إن تأكيد الجرجاني وابن خلدون وغيرهما على أن الملكة تكون في المركب لا المفرد، لا يعني ألبتة أن الأخير لا قيمة له في تعزيز الملكة وتطويرها، بل كل ما في الأمر أن الألفاظ محتواة في التركيب، وشرط لفصاحته، ولذلك اشترط علماء البلاغة المتأخرون في الملكة البلاغية فصاحة المفرد مع فصاحة المركب. قال القزويني عن فصاحة المتكلم هي:"ملكة يُقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"، وشرحها بقوله :"وقيل ملكة" حتى لا يكون المعبر عنها بلفظ فصيح فصيحا، إلا إذا كانت الصفة التي يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه. وقيل:"يقتدر بها"، ولم يقل"يعبر بها"ليشمل حالي النطق وعدمه، وقيل"بلفظ فصيح" ليعم المفرد والمركب"[8].

وهذا التركيب (النظم)الذي ترد إلية الملكة عند علمائنا قسمان:

ـ القسم الأول: تركيب أساسي، وغرضه التبليغ والتواصل وبجمل سهلة، ويكون عند عامة الجماعة اللغوية كما يكون عند خاصتها.

ـ القسم الثاني: تركيب بياني راق، غرضه إجادة الكلام وتزيينه، ويكون عند خاصة الجماعة اللغوية دون عامتها.

فالتركيب الأساسي يُعنى بتركيب وبناء الألفاظ المفردة، للتعبير عن المعاني المُرَادَة المباشرة، بعيدا عن الأساليب والانزياحات الأدبية. أما التركيب الراقي فهو أعقد وأعلى من الأول لأنه ينزع إلى سحر البيان. والنتيجة أن الملكة ملكتان هما:

ـ الملكة الأساسية (الصوابية، التبليغية، التواصلية): وأطلقت عليها هذه الأوصاف لأن غرضها الأول هو التبليغ والتواصل؛ مع مراعاة الحد الأدنى من الصواب اللغوي.

-الملكة البيانية (البلاغية): يظهر فيها الجانب العالي من الكلام متجاوزا للكلام العادي المبسط، مع التأكيد على احترام القواعد الأساسية، بمعنى أن الملكة الأساسية محتواة دائما في الملكة البيانية، فبالإضافة إلى تجسيد القواعد الأساسية المشكلة للملكة الأساسية، ينتقل المتكلم إلى قواعد أخرى تحتكم إلى الأساليب البيانية الساحرة[9].

5. درجات الملكة عند عبد القاهر الجرجاني: لن أكون مبالغا إذا قلت: إن عبد القاهر الجرجاني أوّل من جعل التركيب درجتين: درجة تقف بك عند حدود الصواب، ودرجة ترقى بك في فضائل حسن الخطاب. يقول: " فإذا قلت: أفليس هو كلاما قد اطّرد على الصواب وسلم من العيب؟ أفما يكون في كثرة الصواب فضيلة ؟ قيل: أما الصواب كما ترى فلا لأنا لسنا في ذكر تقويم اللسان، والتحرز من اللحن، وزيغ الإعراب، فنعتد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك صواب دركا فيما نحن فيه، حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركا حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روّية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ[10]". "والحقيقة أن عبد القاهر يفرق في كلامه بين نوعين من

الصواب في الكلام والمعاني؛ الأول: ما يمكن أن نصطلح على تسميته بالصواب النمطي أو الصواب النحوي، والثاني: هو ما حقق ذلك الصواب وزاد عليه بحسن الصياغة، وهذا الثاني هو الجدير بأن يستدرك في نظر الجرجاني وفي نظر البلاغيين قاطبة كذلك"[11].

وليس معنى هذا أن المستوى الثاني يخرج عن قواعد النحو بل هو دائما في إطار ما تسمح به اللغة إما حقيقة أو مجازا. " وهذان المستويان من اللغة كلاهما واقع في إطار ما تسمح به اللغة إما حقيقة أو مجازا، فالمستوى الثاني البلاغي، وإن كان قائما على قدر كبير من التوسع أو التسمح والأريحية في الاستعمال اللغوي، فإنه واقع كذلك في إطار ما تمسح به اللغة، بحيث لا تخرج إلى نوع ثالث من الاستعمال يعد مرفوضا في العرف اللغوي بين أبناء اللغة الواحدة؛ وذلك لأن ما يقع في المستوى البلاغي من العدول أو الخروج أو الانحراف، غالبا ما يكون عدولا مقننا مضبوطا بقواعد لغوية تقنن هذا العدول"[12].

وقد عمد عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي إلى مقارنة ما استوحاه من كلام عبد القاهر بما ذهب إليه العالم اللغوي الشهير"تودورف" قائلا: " ولعل هذا الذي استوحيناه من كلام عبد القاهر هو ما قصد إليه تودورف عالم اللغة الشهير، حيث يرى أن الاستعمال يكرس اللغة في ثلاثة أضرب من الممارسات:المستوى النحوي، والمستوى اللانحوي، والمستوى المرفوض، ويرى أن المستوى الثاني يمثل أريحية اللغة فيما يسع الإنسان أن يتصرف فيه "[13].

وانطلاقا مما سبق ينبغي علينا أن نميز بين مرحلتين في تعليم اللغة العربية لطلبتنا وهما:

1- مرحلة يُكْسِب فيها المعلم المتعلمَ الملكة اللغوية الأساسية، أي: القدرة على التعبير الصحيح، بعيدا عن كل أنواع التعبير الفني الذي يرتكز على الأساليب البيانية الراقية.

2- مرحلة يُكسِب فيها المعلم المتعلم القدرة على التعبير الفني البليغ الذي يتجاوز حدود السلامة اللغوية، ولا يجوز بيداغوجيا الانتقال إلى هذه المرحلة إلا بعد التمكن التام من الملكة اللغوية الأساسية لأنها تنبني عليها[14]؛ ولذلك كان حرص الجرجاني حرصا زائدا على ألا يُفصل بين النحو والبلاغة، " فالنحو من هذه الناحية هو صورة اللغة وبنيتها. أما البلاغة فهي استعمال اللغة واستثمار نظامها في الحياة اليومية"[15].

6. سبل اكتساب الملكة: لاكتساب الملكة اللغوية طريقان: أحدهما مفقود، والآخر موجود؛ وهما:

1.6 المعايشة اللغوية[16]: ويقصد بمصطلح المعايشة اللغوية الانغماس اللغوي، LINGUISTIC IMMERSION وهو على حد تعبير عبد الرحمن الحاج صالح إستراتيجية تعليمية فعالة يُلجأ إليها في تعلم اللغة الأم أو اللغة الهدف؛ "لأن الملكة اللغوية لا تنمو ولا تتطور إلى في بيئتها الطبيعية، وهي البيئة التي لا يسمع فيها صوت أو لغو إلا أصوات تلك اللغة المقصودة بالاكتساب، ومن عزم تعلم لغةً ما عليه أن يعيشها مدة معينة وأن ينغمس في بحر أصواتها، فلا يسمع غيرها ولا ينطق بغيرها"[17]، فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم"[18]. وهكذا تنتقل اللغة من جيل إلى جيل بطريقة عفوية وسلسة لا يشوبها كدر اللحن ولوثة الضعف.

لقد وضع لنا ابن خلدون الشرط اللازم والصارم لمن أراغ اكتساب الملكة اللغوية، والمتمثل في "الانغماس"، وهو مصطلح مادي محسوس، استعاره علماء اللسانيات التطبيقية لإبراز الانغماس اللغوي المعنوي في شكل مادي محسوس. فإذا كان الانغماس لغة هو المَقْل في الماء والغطّ فيه؛ فإن الانغماس اللغوي هو أن ينغمس المتكلم في بيئة لغوية(بحر لغوي) سماعا واستعمالا (نطقا)، من الصوت إلى الكلمة المفردة إلى التركيب، ولا يزال يتكرر السماع عليه، ويكرر هو النطق به، حتى يصير صفة راسخة ويكون كواحد منهم وإن لم يكن من جنسهم؛ وبقدر نقص الانغماس وضعفه في مهارتي السماع أو النطق، وفي أي من مستويات اللغة الثلاثة (الصوتي، الصرفي، التركيبي)، بقدر ما تكون الملكة الناتجة عن ذلك ضعيفة مخدوجة.

ذلك هو الانغماس اللغوي الذي على قدره تكون الملكات. وقد ألقى "**سكينر**" على البيئة مسؤولية جعل الطفل يتعلم لغتها(البيئة)، وأفرادها يقومون بدور التعزيز لتوفير العادات الكلامية[19]؛ وينبغي أن تكون الظروف التي تجري فيها عملية التعلم أقرب إلى ظروف بيئة المتعلم ومحيطه، فالطفل أو المغترب الذي يتعلم في محيطه تكون ملكته أبقى وأرسخ لسببين هما:

1- أن الاكتساب يحدث بشكل عفوي، مغمورا بالسعي الحثيث لإرضاء النفس بتلبية الرغبات، واجتناب المنغصات، وهنا تؤدي الحوافز النفسية دورا فعالا في نيل الملكة.

2- أن الاكتساب يقع على مرأى ومسمع من الأشياء المتوفرة في البيئة، المرئية منها والمسموعة، ومن ثم تكون موضوعا لحديثه[20]. ولاشك أن من يوظف حاستين في التعلم (السمع والبصر) يكون أكثر رسوخا، وليس الخبر كالمعاينة.

ـ تدافع الملكات على المحلّ: وهنا ملاحظة جوهرية أشار إليها ابن خلدون ينبغي ألا تغفل في مثل هذا البحث، وهو أن الملكات تتدافع على المحل، ولن تظفر به على التمام والغاية في الغالب إلا واحدة، "ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات، وأحسن استعدادا لحصولها، فإذا تلونت النفس بملكة أخرى خرجت على الفطرة، وضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل

في هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف"[21].

فإذا ظفرت بالمحل ملكة العجمة، صار امتلاك ناصية العربية وإجادتها أمرا عسيرا، وإن حصل فضعيفا، لأن المحل قد تلون بصبغة العجمة واستحكمت فيه واستبدت به؛ ولذلك ترى اليوم من العجم إذا عاشر العرب وتكلم بلسانهم تجد ملكته فيها ممتحية الآثار، ثم إذا فرضنا أنه تيمم الممارسة والحفظ ليحصِّلها، جاءت ناقصة مخدوشة؛ والسبب في ذلك ما سبق إلى المكتسب من امتلاك ملكة منافية للملكة المقصودة بالطلب؛ لأن قبول الملكات وتحصيلها على الفطرة أسهل وأهون، وإذا تقدمت ملكة على أخرى نازعتها المحل ودافعتها عنه وأبت التزاحم وتلك سنة كونية(التدافع) ولله في خلقه شؤون[22].

2.6 **الحفظ والدربة**: هذان مصطلحان متلازمان متكاملان ولا ينبغي الفصل بينهما، وإلا غابت الثمرة المرتجاة منهما. وهنا أودّ الإشارة إلى أن فصل ابن خلدون بين طريقي اكتساب الملكة لا يعني ألبتة أنهما لا يشتغلان معا وفق آلية منسجمة، فعندما نتحدث عن اكتساب الملكة عن طريق الانغماس اللغوي في البيئة المعينة، وأنه لابد من الارتقاء بالصفة إلى الحال فالملكة عن طريق كثرة التكرار سماعا واستعمالا؛ فهذا يعني حتما أن كثرة الاستعمال(المران) المفضي إلى الحفظ هو عامل فاعل في تعزيز الملكات، فصار الحفظ والمران متضَمَنين في الطريقة الأولى إلا أن الحفظ هنا يكون عفويا. أما في الطريقة الثانية (الحفظ والمران) فيقصد الحفظ قصدا، ويُعمد إليه عمدا.

و تفريق ابن خلدون بين هذين الطريقين إشارة منه إلى أن الأصل في الملكة أن تكتسب عن طريق البيئة والانغماس فيها، وهذا ما اصطُلح عليه باللغة الأم، ولكن إذا فقدت تلك البيئة فليس أمامنا إلا الطريق الثاني، واللغة المكتسبة حينئذ ليست مكتسبة بالأمومة وهذا حالنا اليوم. وقد أحسن صنعا عبد السلام المسدي حين أقرّ بأن" العربية الفصحى بالنسبة إلى كل عربي في أيامنا هي لغة مكتسبة بالتعلم، وليست مكتسبة بالأمومة"[23]، كما أشار ابن خلدون إلى هذا بقوله:" وكذلك تحصل الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك، بحيث تحصل الملكة ويصير كواحد نشأ في جيلهم ورَبَا بين أحيائهم"[24].

إن حفظ العذب من سحر البيان يعزز الملكة اللغوية لدى المتعلمين، وتكون البداية مع كتاب الله إذ هو كتاب البلاغة الأكبر، وحصنها المتين، ونبعها المعين، الذي عجز الخلق عن مجاراته، يضاف إلى القرآن الكريم الحديث النبوي الشريف، على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فهو أفصح من نطق بالضاد من العباد، ثم الشعر العربي من خلال المعلقات العشر، فهو ديوان علوم العرب وأخبارهم، وشاهد على بلاغتهم وفصاحتهم، وحتى كلام المولدين أيضا.

وهذا المنهج كانت تنتهجه المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة قناعة منها أن حفظ الكلام العربي شعره ونثره والإكثار منه تستحكم به ملكة من رام تعلم العَربية[25]؛ "وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته وجنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عند الحافظ... **وعلى مقدار جودة المسموع أو المحفوظ؛ تكون جودة الاستعمال من بعده**، ثم إجادة الملكة من بعدهما، فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الطبقة الحاصلة؛ لأن الطبع إنما ينسج على منوالها"[26].

إذن على قدر جودة المحفوظ تكون جودة الاستعمال؛ وعلى قدر رداءة المحفوظ تكون رداءة الاستعمال، وهذا دليل قاطع على ذلك التلازم بين ثنائية الحفظ والاستعمال الذي أكدناه آنفا، ولو أن حافظا أرهق نفسه، وأنفق وقته في حفظ المتون شعرها ونثرها؛ لتحصيل الملكة دون دربة واستعمال، لكان ذلك عبثا من السعي، وبوارا من العمل، فالحفظ والاستعمال كالروح والجسد، وهل رأيت جسدا يسعى بلا روح؟ فالملكة "إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكراره على السمع، والتفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل البيان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها"[27]، وكذلك نقول في الحفظ وحده: إنه يفيد علما بالمحفوظ ولا يفيد حصول ممارسة ونسجا على منوال ذلك المحفوظ، فالملكة لا تحصل إلا بالحفظ والاستعمال معا.

7. **أثر الحفظ في تعبئة المعجم الذهني**: ويقصد بالتعبئة شحن وملأ الرصيد اللغوي ، فكما أن الإنسان إذا أراد أن يستعمل هاتفه المحمول في اتصال ما، عليه أن يعبئ رصيده بالوحدات الكافية لهذا الاتصال، وإلا انقطع الاتصال إن كان فيه بعض الوحدات، أو لا يقدر عليه أبدا لعدم وجود وحدات أصلا، فكذلك المتكلم فإنه يشحن رصيده اللغوي بطريقة لاشعورية إن كانت بيئته الطبيعية توفر له الانغماس اللغوي، وإن لم تتوفر هذه البيئة فالبديل هو الحفظ، وعلى قدر كثرته وجودته يكون المعجم جودة وكثرة، والمتكلم الذي يكون رصيد معجمه الذهني ضحلا من المفردات ستكون ممارسته اللغوية مخدوجة مبتورة؛ لأنه لا يجد ما يعبر به عن بعض الأشياء والأفكار، فيخرج كلامه مستهجنا نابيا، بل قد يخرج عن الجادة أصلا كأن يسمي الأسماء بغير مسمياتها.

وقد سبق إلى أوهام الكثير من الباحثين أن النحو كفيل بعلاج العيّ ووسيلة للتفصح، شعارهم في ذلك تعريف ابن جني للنحو بأنه انتحاء سمت العرب في كلامها، وهذا كلام غير سليم بالمرّة، وغاية ما يفهم من قول ابن جني أننا نتكلم بتوجيه من قواعد النحو، هذا إن وجدنا المادة الخام من كلام العرب في معجمنا الذهني التي بها ننظم وفق قواعد النحو، وتلك هي المشكلة التي تغافلنا عنها [28]. ويمكن أن نمثل لهذا ببنّاء ماهر قد هيأ كل شيء من أرضية صالحة للبناء، ومخطط رائع، وعمال أكفاء، لكنه لا يملك الآجر والإسمنت، هل يمكن له تطبيق ذلك المخطط في الواقع ؟

إن متن اللغة السليم والكثير عنصر ضروري في تعزيز الملكة التواصلية، ولعلّ إهمال هذا الجانب من اللغة راجع إلى تلك

الفكرة التي تؤكد أن اللغة ليست قائمة من المفردات، وإنما هي نظام وهذا صحيح، لكن ذلك لا يعني إهمال الألفاظ المفردة ألبتة، أو أنها لا دور لها، ثم إن امتلاك النظام لا يعني امتلاك الملكة التواصلية، وفرق بين الصناعة والملكة على ما مرّ معنا من ابن خلدون. وقد أكد هذه الفكرة عبد القاهر الجرجاني حين قال:" أن الألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن **لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد**" [29] ، فالفائدة تحصل بالضم الذي هو النظم وفق قواعده النحو، ولكن ضم ماذا، ونظم ماذا؟ الجواب: ضم ونظم الألفاظ. " إن مصطلح معجم اللغة أو متن اللغة يشير إلى الجانب البنوي الظاهري كالأصوات، والألفاظ، والكلمات، والصيغ، والأوزان، والتراكيب... وبالمقابل يشير إلى القواعد والضوابط التي تتحكم في بناء الكلم مفردا ومركبا، وتضبط علاقات الوحدات المعجمية والدلالية في سائر أنواع التراكيب الممكنة"[30]؛ فحفظ جيد المنظوم والمنثور يمد الحافظ أثناء الكلام بوحدات معجمية ونحوية وتراكيب لغوية، بل ويمده أيضا بجملة من الأسيقة والأحوال والملابسات التي تكسبه ملكة مراعاة الأحوال بين المقام والمقال، كما تمده بشحنات تربوية وعاطفية قل أن نعثر عليها في غيره.

1.7 **الحفظ وفن الاختيار**: وهنا أجد نفسي مضطرا لسوق مثال جيد لقيمة الحفظ ودوره في تعبئة المعجم الذهني الذي يعزز الملكة، والتي تعني البلاغة والفصاحة، ولا أظن أن أحدا قد جعله دليلا على مكانة الحفظ من قبل و لا فخر. سنقف في هذا المثال مع علم من أعلام القرن الرابع الهجري هو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المتوفى سنة(388هـ)، يعد من أبرز علماء أهل السنة، وقد مثلت أفكاره اللغوية (في رسالته بيان إعجاز القرآن) مرحلة عظيمة في قضية النظم القرآني والنظم بصفة عامة [31] . والذي أجزم به أن الخطابي قد تجاوز في شرحه التقليد والظن اللذين جرى عليهما سابقوه على الرغم من تسليمهم به؛ ولذلك"صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام...وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به... وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معا فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة. قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل على إبهام [32]

لقد استقر رأيه بعد إنكاره لهذا المسلك على أن السر البلاغي الذي تعذر عن البشر الإتيان بمثله، إنما كان لأمور" منها: **أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها، وارتباط بعضها ببعض؛ فيتوصلوا باختيار الأفضل على الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله. وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ...** وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا"[33].

إنه بحق أول مؤَلف يتعرض لشرح فكرة الإعجاز بالنظم إيضاحا للإعجاز من جهة البلاغة، الذي قال به جمهور العلماء من أهل النظر من قبله، واضعا مِشْرَط البحث على أركان النظم وهي: لفظ حامل، ومعنى عليه محمول، ورباط لهما وناظم. وكل كلام يقوم على هذه الأركان الثلاثة، والقرآن الكريم جاء بأصح المعاني، في أفصح الألفاظ، في أحسن نظوم. "ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر فانقطع الخلق دونه"[34]؛ لأنهم **عاجزون عن الإحاطة بجميع الألفاظ، وجميع المعاني، وجميع النظوم، حتى لكأنها مجتمعة كلها أمام أعينهم، حاضرة في أذهانهم، لحظة نظم الكلام. فيختارون منها أحسن لفظ لأحسن معنى، في أحسن نظم، واضعين كل شيء في موضعه حتى لا يُرى موضع أولى به منه، وإذا كانت الألفاظ وهي نوع واحد من الأنواع الثلاثة يتعذر على الواحد من الناس الإحاطة بها وبفروقها الدلالية فيضع كل لفظ في موضعه الأنسب له وبه، بحيث إذا أبدل مكانه غيره لزم منه أحد أمرين: إما تغير المعنى الذى يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه ذهاب البلاغة.**

وقد قال بعض العلماء [35] في الأسماء اللغوية وهي ركن واحد من أركان الكلام التي اشترطناها **أنه لايجوز أن يحيط بها كلها إلا نبي** [36]، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو في ذروة السنام من الفصاحة، يقرأ قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأبًّا﴾" [37]، فلا يعرف الأبّ، فيراجع نفسه ويقول : ماالأبّ؟ ثم يقال معرضا: إن هذا تكلف منك يا بن الخطاب. وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو ترجمان القرآن ووارث علمه يقول: لا أعرف حنانا، ولاغسلين، ولا الرقي[38]. فهذا المثال ينضح بما فيه ولم يحتج إلى شرح لوضوح الشاهد فيه على القصد من إيراده، ولو أن كاتب هذا المقال قصر بحثه على هذا المثال لكان كافيا في إبراز كشف مارامه من البحث، ولكننا نطمح إلى أبعد من ذلك نطمح إلى ربط **الحفظ بفن الاختيار بالبلاغة** التي ليست سوى قمة الملكات وأعلاها، فكيف ذلك؟

لنعد ثانية إلى ما أورده الخطابي من أن السر البلاغي الذي تقطعت عليه أعناق الجياد السُبَّق، وتوانت عنه خطا الجياد القُرَّح، التي لطالما صالت وجالت في سوق عكاظ هو**عجزهم"عن الإحاطة بجميع الألفاظ، وجميع المعاني، وجميع النظوم، حتى لكأنها مجتمعة كلها أمام أعينهم، حاضرة في أذهانهم، لحظة نظم الكلام. فيختارون منها أحسن لفظ لأحسن معنى في أحسن نظم، واضعين كل شيء في موضعه حتى لا يُرى موضع أولى به منه**". فنظم الكلام يقوم على الإحاطة بجميع الألفاظ من أسماء، وأفعال، وحروف،

وتراكيب، وكذلك الإحاطة بجميع معاني هذه الألفاظ، ومنها الفروق الدلالية بينها، وبجميع النظوم، حتى لكأنها مجتمعة بين يدي المتكلم حاضرة في ذهنه لحظة الكلام فينتقي منها أحسن لفظ، لأحسن معنى، في أحسن نظم، في أحسن موضع، وهو مراعاة المقام.

وعندما نقول الإحاطة حتى لكأنها حاضرة في الذهن فليس المراد هنا سوى الحفظ. وهو غير كاف وحده فلابد من فن الاختيار وحسنه، " **ولا يتأتى الاختيار إلا بعد معرفة وتمثل ثم موازنة واختيار**"[39]؛ فالذي يحفظ كل الكلام المستعمل وهو ما يفوق اثني عشر مليون كلمة ويعرف معانيها وفروقها، ويعرف الفروق بين وجوه النظم، ومقاماتها بحسب أحوال المخاطبين لاشك أن ملكته تكون أرقى ممن هو دون ذلك.

8ـ **الدربة والاستعمال**: الدربة صِنْوُ الحفظ وردؤه، وبدونها يبقى الحفظ مجرد كلام نفسي حبيس الخواطر، ذلك أن الحافظ لا يزال لسانه رطبا باستعمال أساليب القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأساليب المتقدمين من شعر ونثر، وأمثال وحكم ونوادر، ويكون ذلك في البداية تقليدا لهم، فإذا ترسخت تلك المناويل وصارت ملكة في اللسان، انطلق في النسج على منوالها دون حاجة إلى تسميع نصوص القدماء، فمن يحفظ قوله تعالى:﴿ وفوق كل ذي علم عليم﴾ [40]، سينسج على منوالها: وفوق كل ذي فصاحة فصيح، وفوق كل ذي غنى غني، ومن يحفظ قوله تعالى:﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم﴾[41]، سينطلق لسانه بقوله: فبما صبر منا تجاوزنا عنكم، فبما ظلم منكم عاقبناكم، وهلم سحبا.

علينا أن نجعل العربية منهج حياة نتداولها في أسرنا، وأسواقنا، ومساجدنا، ومدارسنا، وجامعاتنا. ويمكن أن نمثل للدربة وأثرها في ترسيخ المناويل التي ينسج عليها بتعلم أحكام التلاوة، ففي البداية يتعلم هذه الحكام مع الممارسة أمام المقرئ، ولكن لدقائق معدودة ، وغير كافية، ولكن لا يزال يكرر ويصحح لنفسه من خلال مراجعة تلك القواعد حتى تصير سجية وملكة في لسانه، فيقرأ القرآن كاملا دونما حاجة إلى مراجعة أيّ من قواعد التلاوة ، بل في كثير من الأحيان ينسى تلك القواعد وحدودها بالمرّة، فسبحان من يسر القرآن للذكر.

9ـ **الملكة بين المفقود والموجود**: هناك طريقان لاكتساب الملكة لا ثالث لهما وهما: الانغماس اللغوي في بيئة لغوية صالحة، أوالحفظ والمران وكثرة معاشة كلام الفصحاء من خلال كتبهم، والطريق الأول في عصرنا مفقود، والثاني موجود؛ فكان لزاما على القائمين على التربية والتعليم في جميع مراحله أن تراعي ذلك وتسعى إلى تفعيل الممكن الموجود، وعدم تضييع الوقت بحثا عن المفقود، ولكن الواقع يسير في الاتجاه المعكوس، فالحفظ مثلا صار سبّة عند طلبتنا، وحتى الأساتذة ليسوا براء من هذه التهمة، فكم سمعنا الطلبة يتبرمون من الحفظ قبيل الامتحانات! وكم سمعنا الأساتيذ يهدئون من روعهم ! وكأن الحفظ لم يعد نعمة من نعم الله على خلقه، ثم عن أي حفظ يتحدثون؟ إنه حفظ نتف من محاضرات الأساتذة لأيام معدودات، وهي أيام الامتحانات والتي لا تتجاوز في أحسن الأحوال عشرين يوما، فإذا سلمنا أن محاضرات الأساتذة من جيد الكلام الذي يُحتذى به في نظم الكلام، فهل يرتقي هذا المحفوظ إلى درجة الحال الراسخة التي تصير ملكة في العضو الفاعل لها وهو اللسان؟ أم أنها لن تعدو مجرد صفة عابرة تمحى مع انقضاء الامتحانات؟ أظن أن السؤال لا يحتاج إلى جواب.

ولعل أطرف – ومن الطرافة ما يبكي- قصة سمعتها حول هذا الموضوع هي محاولة تلك الأستاذة التي بادرت بإلزام طلبة السنة الأولى بحفظ قسط من القرآن في مقياس القرآن الكريم، فصارت حديث الألسن، ومثار سخرية عند الطلاب والأساتذة على حد سواء، فبعضهم يقول لسنا في كلية شريعة، وبعضهم لسنا في زاوية لتحفيظ القرآن، وبعضهم هذا خروج عن المقرّر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا قلنا بانعدام البيئة اللغوية الفصيحة التي تتيح الانغماس الكلي لمتعلم العربية، فلا يعني هذا أن الطالب يترك على فطرته، بل هناك بيئة أخرى حلت محلها، وأكسبت الطالب ملكة أخرى، هي ملكة العامية المشوبة بالفرنسية والدارجة، وهنا يزداد الأمر تعقيدا لأن المحل قد شغل بملكة أخري على حد تعبير ابن خلدون، وتلوّن بصبغة تلك الملكة على حساب الملكة الثانية؛ فازدادت ملكتهم وهنا على وهن، بل لو سلمنا جدلا أن طلبتنا يسلكون الطريق الصحيح لامتلاك الملكة التواصلية عن طريق حفظ جيد المنظوم والمنثور، واستعماله آناء الدرس وأطراف الحرم المدرسي والجامعي، ولكنهم في الوقت نفسه ينغمسون لغويا في بيئة عامية لكانت الأخيرة أولى بالمحل وأمكن فيه، فكيف إذا كانت العامية هي المسيطرة في محيط الجامعة؟ بل تسللت إلى قاعات الدرس ومدرجات المحاضرات، مع غياب تام لأي مشروع تحفيظي تدريبي؟

وإذا كان العاكفون على كتب المتأخرين من مهرة النحاة، الذين لم يخالطوا كتب المتقدمين أمثال سيبويه وغيره، يظنون أنهم على شيء من الملكة وهم أبعد الناس عنها، وأهل المغرب وأفريقية (في زمن ابن خلدون وهو واحد منهم) الذين اشتهروا بحفظ المتون لم يمتلكوا ناصية الملكة، بسبب اهتمامهم بالقوانين وإهمالهم للشواهد إلا ما يستدلون به على القاعدة؛ - بخلاف أهل الأندلس – فأصبحت صناعة العربية عندهم جملة من القواعد المنطقية الجافة، فكيف بجامعاتنا التي استغنت عن كتب المتأخرين، فضلا عن المتقدمين، وصارت تقتات على نتف من كتب المحدثين التى لاتسمن من عربية ولا تغني من ملكة؟

1.9 **وهن المقررات والمناهج**: وحتى المقّررات غير مبرّأة من الوهن الذي ألمّ بألسنة طلبة العربية وآدابها، وهذا ليس كلاما استهلاكيا غرضة الانتقاص من هيئة التدريس، أو الوزارة الوصية، وسوف أستدل على ما أقول من خلال تأمل مقرّرات

البلاغة العربية بعدّها أقرب المقاييس وأولاها بتعزيز الملكة التواصلية وتطويرها. فمنذ أن عرفنا البلاغة مازال أساتذتنا يكررون على مسامعنا أهدافها التالية:

- هدف ديني يتمثل في تذوق القرآن الكريم، والوقوف على أسراره البلاغية التي أعجزت الخلق عن المجاراة.

- هدف نقدي بلاغي يتمثل في التمييز بين الجيد والرديء من كلام العرب نظمه ونثره.

- هدف أدبي غرضه التدرب على صناعة الكلام البليغ نظمه ونثره، وهو تعزيز الملكة التي نحن بصدد البحث فيها [42].

وقد درس طلبتنا البلاغة في الطور الثانوي، وفي الجامعة في السنة الأولى من نظام (ل . م . د)، وفي السنة الثالثة للسانس، وفي السنة الأولى ماستر. ولم نحقق أي هدف من الأهداف المعلنة لتدريس البلاغة، ونحن في زمن التدريس بالكفاءات.

يجب أن نحدد أهداف كل مرحلة من مراحل التعليم، ثم نتحقق من نتائجها فإن كانت مرجوة تدرّجنا إلى هدف آخر وملكة أخرى وهكذا. أما إذا كانت النتائج مخيبة فلا بد من مراجعة الأمر وإعادة الكرّة، ولنضرب على ذلك مثالا فيما يتعلق بموضوع بحثنا، فالملكة ملكتان: ملكة أساسية تمكن الطالب من التعبير السليم العفوي، نركز في هذه المرحلة على الأساليب السهلة التي لا تشترط إلا السلامة اللغوية بعيدا عن التعبير الفني القائم على الصور البيانية. وفي مرحلة لاحقة ننتقل إلى التعبير البليغ، أي الملكة البيانية التي تتجاوز السلامة اللغوية، ولا يتم ذلك إلا بعد تحصيل الملكة الأساسية. أما في واقع تعليمنا فكثيرا ما يجبر الطلبة على التعبير الفني وهم عاجزون عن التعبير السليم، بحجة أنهم انتقلوا من الثانوية إلى الجامعة، أو من للسانس إلى الماستر، ويجد الأستاذ نفسه ملزما بتطبيق البرنامج، وفي هذه الحال لابد من أن تخصص لهم دروس تكثيفية في بداية العام الدراسي غايتها إكساب الملكة الأساسية لمن لم يحصِّلها [43]. ولكن هذا غير موجود.

وفي مقابل هذا نجد كثيرا من دروس البلاغة لازالت تكرر من الثانوية إلى الجامعة بجميع مراحلها في النظام الجديد (ل ، م . د) دون حاجة إليها، وهذا راجع لعدم التنسيق أثناء إعداد المقرّرات بين الأساتذة، والأدهى والأمّر أن صارت مهمة فتح التخصصات وإعداد المقررات في هذا النظام تسند لآحاد الأساتذة، مقابل دريهمات تصب في راتبهم؛ فهرعوا لفتح التخصصات دون أهداف مسطرّة ولا غايات منتظرة، فكم سمعنا بتخصص أعِدّ بليل قبيل انعقاد اللجنة العلمية بسويعات، فهيعات هيهات !

أما الدربة والاستعمال فغائبان من مقرارتنا ومن الطريف أنه في أحد مشاريع للسانس اقترح مقياس التعبير الشفوي، وهذا عمل يستحق التثمين، ويخدم موضوع بحثنا، ولكن اختلف الأساتيذ في المجلس البيداغوجي كيف يكون الامتحان فيه، شفوي أم كتابي؟ وخلصوا نَجِيا إلى أن الفصل بيد رئيس القسم، فسرعان ما تحطمت بادرة الأمل تلك وأجري الامتحان كتابيا، حاولنا في أحد مشاريع الماستر أن نركز على الإلقاء الشفوي، وهو أن يلزم كل طالب بتلخيص موضوع بحثه وعرضه في حدود خمس دقائق بأسلوب سليم، وعلى زملائه تصيُّد الأخطاء، ثم تُصوّب من قبل الأستاذ والطلبة، ثم يقيم الطالب وتعطى له علامة يكون لها النصيب الأكبر من علامة الأعمال الموجهة، من باب التحفيز(عشرة من عشرين). وقد استصعب الطلبة ذلك في البداية ولكنه هان عليهم فيما بعد وألفوه، والحمد لله، ولكننا نعتقد أن الوقت المخصص للممارسة الشفوية قصير ولا يفي بالغرض.

وقد يقول معترض: أنت تتحدث عن وضع لغوي يخص المدرسة والجامعة الجزائريتين، وقد لاينطبق هذا على كل الأقطار العربية الأخرى؛ فأقول نعم قد تكون هذه الدراسة الوصفية قاصرة على عينات محدودة، ولايجوز منهجيا تعميمها على بقية الحالات[44] – وهو أحد الانتقادات التي واجهت المنهج الوصفي-، ولكن هناك واقع في العالم العربي لايدفعه باحث منصف، وهو تردي الوضع اللغوي للعربية من الخليج إلى المحيط، ويكفي أمارة على ذلك أن البلاغة هي نفسها التي تدرس في العالم العربي من محيطه إلى خليجه، وهي ركيزة أساس في اكتساب الملكة، والكل يشكو من جفافها وعدم فاعليتها في صناعة الفصاحة التي ليست سوى مصطلحا آخر للملكة.

خاتمة

الحقيقة المرّة التي يجب الاعتراف بها هي أن ضعف الملكة اللغوية عند أهل العربية أمر واقع؛ وقد اجتمعت عليه أسباب لغوية وأخرى فوق لغوية، وأقصد بفوق اللغوية الأسباب غير اللغوية؛ كالسياسية؛ والاجتماعية، والثقافية؛ وما علينا سوى البحث عن الدافع لهذا الضعف، واضعين في الحسبان آثار العولمة اللغوية، التي اجتهدت في عولمة اللغات الأجنبية على حساب العربية في عقر دارها، والبداية تكون من المدارس والمساجد الجامعات، كبيئات يمكن أن تمارس فيها عملية الانغماس اللغوي، في انتظار اتساع تلك البيئة لتعم المجتمع كله، وأعتقد أن منهج العرب القدماء في صناعة الملكة واكتسابها هو منهج متكامل الأركان قوي البنيان، لو أحسننا تطبيقه مستغلين النظريات الغربية في حقل تعليمية اللغات كروافدَ يمكن أن تلعب دور المساعد، و غير متغافلين لما تكرمت به التقانة من وسلائل وأدوات يمكن أن تشد من عضد العملية التعليمية الرامية إلى امتلاك الملكة اللغوية.

تضارب المصالح

❖ يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

الهوامش

1- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، المجاد السادس - الميم - الياء، ص.4267- 4268

2- أحمد الزعيبي: المعجم الفلسفي، دار الآثار، الطبعة الأولى، 1996 م، ص57.

3- عبد الرحمن ابن خلدون:المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق:عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الطبعة الأولى، 2005م، الجزء الثالث، ص250.

4- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح: محمد عبده، ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، تعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان،الطبعة الأولى، 1994 م، ص415 - 416 .

5- المرجع نفسه، ص35 - 36.

6- ينظر: أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر،1987م، ص136.

7- محمد التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1996م، الجزء الثاني، ص1642.

8- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي،1987م، الجزء الثالث، ص302.

9- ينظر: فتيحة حداد: ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية، دراسة تحليلية نقدية، منشورات مخبر الممارسة اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، الجزائر،2011م، ص143.

10- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص77.

11- عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2002م، ص72.71.

12- المرجع نفسه ، ص72.

13- عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، دراسة نظرية تطبيقية ، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة،ص74.

14- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، موفم للنشر، الجزائر،2007م ، ص225.

15- صالح بلعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى 2002م، ص80.

16- وظف هذا المصطلح تمام حسن. ينظر: التمهيد في اكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها: تمام حسان، جامعة أم القرى معهد اللغة العربية وحدة البحوث والمناهج، سلسلة دراسات في تعليم اللغة العربية، السعودية، 1984م، ص8.

17- ينظر:المرجع نفسه، حاشية ص79.

18- عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، الجزء الثالث ، ص250.

19- ينظر: ميشال زكريا: قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية، مع مقارنة تراثية، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، 1993 م، ص78.

20- ينظر:عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص225 226-.

21- ميشال زكريا: قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية، ص109.

22- ينظر:عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، الجزء الثالث، ص268 276-.

23- عبد السلام المسدي: العربية والإعراب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010م، ص149

24- عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، الجزء الثالث ، ص265.

25- ينظر: أحمد بناني: دور المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة في تعزيز الملكة اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية : التعليمية والتعلمية 7. 8 . 9. ديسمبر2010م، ص60.

26- عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، الجزء الثالث، ص292.

27- المرجع نفسه، الجزء الثالث، ص265.

28- ينظر: ابن حويلى ميدني: شحن الرصيد المعجمي حلقة التعليم المفقودة، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية: التعليمية والتعلمية -7 8 - 9، ديسمبر2010م، ص194.

29- عبد القاهر الجرجاني :دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص415. 416.

30- ابن حويلى ميدني: شحن الرصيد المعجمي حلقة التعليم المفقودة، ص 196.

31- ينظر: وليد محمد مراد : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الأولى،1983 م، ص 27.

32- المرجع نفسه، ص25-24.

33- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد، حققها وعلق عليها: خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعرفة ، مصر،الطبعة الثالثة، 1976م، ص 26 - 27.

34- المرجع نفسه، ص28.

35- هو محمد بن إدريس الشافعي، والقول كاملا هو:"ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه".

36- ينظر: محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق: محمد أحمد شاكر، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الثالثة، 2005 م، ص128.

37- سورة عبس،الآية31.

38- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد، ص36.

39- محمد بركات حمدي أبو علي : فن الاختيار والبلاغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان ، الأردن، الطبعة الأولى، 1996م ص09.

40- سورة يوسف، الآية 76.

41-سورة آل عمران، الآية 159.

42- فتحي عبد القادر فريد: بحوث ومقالات في البلاغة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984 م.ص82.

43- ينظر:عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص225.

44- ينظر: عمار بوحوش، ومحمد محمود الذنيبات: مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة ثالثة منقحة، 2001م، ص 145.

المصادر والمراجع

1- أحمد بناني: دور المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة في تعزيز الملكة اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية: التعليمية والتعلمية -7 – 8 -9 ديسمبر2010م.

2- أحمد الزعبي: المعجم الفلسفي، دار الآثار، الطبعة الأولى، 1996م.

3- أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر،1987م.

4- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي،1987 م، الجزء الثالث.

5- ابن حويلى ميدني: شحن الرصيد المعجمي حلقة التعليم المفقودة، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية:التعليمية والتعلمية -7 8 – -9

ديسمبر2010م.

6- عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2002م.

7- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، موفم للنشر، الجزائر،2007م.

8- عبد الرحمن ابن خلدون:المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق:عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الطبعة الأولى،2005م، الجزء الثالث.

9- عبد السلام المسّدي: العربية والإعراب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

10- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح: محمد عبده، ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، تعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1994 م.

11- للرماني والخطابي والجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد، حققها وعلق عليها: خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعرفة ، مصر،الطبعة الثالثة، 1976م.

12- صالح بلعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى 2002م.

13- فتحي عبد القادر فريد: بحوث ومقالات في البلاغة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984م.

14- فتيحة حداد: ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية، دراسة تحليلية نقدية، منشورات مخبر الممارسة اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، الجزائر،2011م.

15- محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق: محمد أحمد شاكر، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الثالثة، 2005 م.

16- محمد بركات حمدي أبو علي: فن الاختيار والبلاغة العربية ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1996م.

17-محمد التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى،1996م، الجزء الثاني.

18- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، المجاد السادس - الميم - الياء.

19- ميشال زكريا: قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية، مع مقارنة تراثية، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى،1993 م.

20- وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الأولى، 1983 م.

21- عمار بوحوش، ومحمد محمود الذنيبات: مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة ثالثة منقحة، 2001م.

22- تمام حسان: التمهيد في اكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها، جامعة أم القرى معهد اللغة العربية وحدة البحوث والمناهج، سلسلة دراسات في تعليم اللغة العربية، السعودية، 1984م.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA:

المؤلف عمر بوقمرة ، (2020)، صناعة الملكة اللغوية في الفكر العربي القديم - الأسس والآليات - ، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد12، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص،ص:160-169